تاريخ علم الكلام

قسمان منفردان لعلم الكلام:

على الرغم من أن مسمى علم الكلام ظل يطلق على مجموعة مسائل مختلطة ردحًا من الزمن، لكنه في الحقيقة قسمان منفردان وأهداف كل قسم مختلفة تمامًا عن الآخر، وأحد قسمي علم الكلام هو الذي نشأ نتيجة النزاع الذي دار بين الفرق الإسلامية وأخذ ينتشر على نطاق واسع لفترة من الزمن، وظلت المعارك الكلامية محتدمة بسببه ولم يستعمل فيها القلم فحسب بل استخدم السيف كذلك، وحلت بالقوة الوطنية للإسلام مأساة عارمة.

والقسم الثاني من علم الكلام كان قد اخترع لمجابهة الفلسفة، وظل كلاهما منفصلاً عن الآخر حتى عهد الإمام الغزالي، وقد مزج الإمام الغزالي بينهما، ثم طورهما الإمام الرازي، وجاء المتأخرون وجمعوا بين الفلسفة والكلام وأصول العقائد في موضوع واحد.

ولا تقتضي الحالة الراهنة للمسلمين البحث في القسم الأول من علم الكلام ولا أن يكتبوا تاريخه، لكن لأن القسم الثاني من علم الكلام الذي نهدف إلى كتابة تاريخه، والذي تم على غراره تأليف علم الكلام الجديد يتعلق به كثير من الآراء التى يرتهن معرفتها بتاريخ القسم الأول من علم الكلام، فمن المهم إذن وضع تصور مجمل له. ولم ينشأ أي نوع من البحث والنزاع والتحقيق والتمحيص الذي يتعلق بالعقائد طالما ظل الإسلام داخل حدود الجزيرة العربية، وسبب ذلك أن الذوق الأصلي للعرب يميل إلى الجانب العملي لا إلى الجانب الخيالي، ولهذا فإن التحقيقات والأبحاث التي كانت

قد ظهرت في بداية الأمر تعلقت بالأمور العملية مثل الحج والزكاة والصيام والصلاة حتى أنه كانت هناك محاولة في عصر الصحابة لإعداد مجموعة من القواعد الفقهية لكنها كانت تتعلق بأمور العقيدة والإيمان ولم ينتقدوها أو يعترضوا عليها بل كان ذلك كافيا لفهم العقيدة بشكل مجمل.

أسباب اختلاف العقائد:

لكن عندما اتسعت دائرة الإسلام ودخلت القوميات الإيرانية واليونانية والقبطية في محيط الإسلام، عندئذ بدأت الانتقادات المتعلقة بالعقائد، وأحد أسبابها أن ذوق الشعوب الأعجمية كان يميل إلى النقد والاعتراض وتفنيد الآراء. وكان ثاني أكبر الأسباب أن الأقوام الذين دخلوا في الإسلام كانت لهم أفكار خاصة تتعلق بمسائل العقائد في أديانهم القديمة مثل: صفات الله، والقضاء والقدر، والثواب والعقاب، وكانت تلك الأفكار تخالف العقائد الإسلامية مخالفة صريحة مثل تعدد الآلهة والشرك وعبادة الأصنام وقد محيت تماما من قلوبهم. ولكون العقائد الإسلامية تحتوي على جوانب عديدة فقد كان فيها بعض الجوانب تتشابه مع عقائدهم القديمة، وبالطبع كانوا يميلون ناحية هذا الجانب، ولأن الناس من مختلف الأديان اعتنقوا الإسلام وكانت عقائدهم القديمة متباينة فيما بينهم تماما، كان من الطبيعي أن يكون هناك خلاف بينهم نتيجة لأثر العقائد المختلفة عليهم، فمثلاً يعتقد اليهود أن الله على هيئة إنسان مجسم له عينان، وعندما تصاب عيناه بمرض وتؤلمه تعوده الملائكة، وأنه أحيانا يتحارب مع أحد الأنبياء ويصاب بالمصادفة وغيرها من المعتقدات، (١) وهذا النوع من المعتقدين عندما أسلموا كان من الضروري أن يميلوا ناحية تلك الآيات التي وردت بها كلمات تنسب لله تعالى أن

---

(١) رسائل إخوان الصفا. ٣٢٩/٢.

له يدًا وعينًا وفمًا وغيرها، وكان من الضروري كذلك أن تستقر معاني تلك الكلمات في أذهانهم وأن الله له حقًا يد وقدم.

علاوة على هذا كانت هناك بعض المسائل لها معنيان، فعندما كانوا يقيمون آراءهم المتعلقة بها كان يحدث اختلاف رغمًا عنهم، فمثلاً مسألة القدر والجبر تبدو من ناحية أننا مخيرون في أفعالنا، ومن ناحية أخرى عندما نمعن النظر يتضح أن الأفعال من جانب تتم بإرادتنا، وهي كذلك ليست من اختيارنا، وأن أكبر أسباب الاختلاف هو اختلاف فطرة الطبائع الإنسانية.

فالشخص المتدين، سليم الطبع، سليم القلب عندما يرد في قلبه تصور الله عز وجل يرد على ذهنه صورة الله تعالى أنه مالك الملك وملك جميع الملوك، لا يستطيع أي شخص أن ينفذ حكمه عليه، ولا مجال لأحد للاعتراض على أحكامه وله جل شأنه الخيرة في أن يثيب المذنبين ويعاقب المحسنين.

- إذا وجه دعوة للكرم سيقول الشيطان سأحصل على نصيب منها.
- وإذا استل سيف الحكم بالتهديد فإنه يشبه الأصم ويصير البيان هو بيان الصم والبكم.

ولو أظهر الله كامل قدرته لجعل من الحصى جبلاً والليل نهارًا ولبدل حرارة النار برودة، ومنع جريان الماء، هو علة كل شيء، والأشياء التي نعبر عنها بالأسباب والعلل كلها هباء فالإنسان غير مخير في أفعاله، بل كل الذي يفعله بإرادة الله. وبعد أن اتخذت هذه الأفكار طابع العقائد صارت من المسلمات لدى الأشاعرة، وهكذا بينوا تلك الآراء في شكل مسائل كلامية هي:

- الأحكام الإلهية غير مبنية على المصلحة.
- أي شيء في الدنيا لا علة له.

- لا تأثير للخواص في الأشياء.
- يعاقب الله الخيرين من الناس بلا سبب وهذا ليس ظلمًا.
- الإنسان مسير في أفعاله.
- الله يجعل الإنسان يفعل الخير والشر كذلك.

وفي مقابل ذلك هناك تصور فلسفي لوجود الله يطرحونه هكذا:

جميع أقوال الله عز وجل مبنية على حكمة، ولا تخلو مثقال ذرة من مصلحة، وهذا النظام في حد ذاته قد أسس سلسلة قوية ومرتبة للعالم لا تنفصم عراها قط، وقد وضع جل شأنه التأثير والخواص في الأشياء فلا تنفصل عنها، وجبل الإنسان على مسئولية اختيار أفعاله، والعدل والإنصاف فطرته ولا يمكن أن يظهر ظلم منه قط، وقد أصبحت هذه الأفكار من عقائد المعتزلة.

وهذه النقطة ذاتها هي التي ذكرها الإمام الرازي في تفسيره لسورة الأنعام في "التفسير الكبير" نقلاً عن الشيخ أبي القاسم الأنصاري بهذه الألفاظ: "يرى أهل السنة والجماعة (يقصد الأشعرية) أن قدرة الله تعالى تتجه نحو الوسعة والرحابة، في حين يرى المعتزلة أن الله تعالى معظم ومبرأ عن العيوب، ولو نظرنا بإمعان لوجدنا أن كليهما معترف بعظمة الله وتقديسه، والفرق فقط في صواب الرأي وخطئه".

لقد كان البحث في العقل والنقل أحد أكبر الأسباب الرئيسية لاختلاف العقائد، والفطرة تفطر البشر على نوعين من الطبائع أحدهما أن يتدخل العقل في كل فعل، ومادام أي أمر لم يستوعبه عقله لن يؤمن به. والثاني هو الذي لا يستسيغ هذا النوع من البحث في الكيف والكم، وعندما يستمع إلى أي أمر من شيخ له أو إمام عظيم يعتقد في آرائه فإنه يقبله ولا يبحث في أسبابه بل ينصاع له.

ولما كان كلا النوعين من الطبائع مما تقتضيه الفطرة الإنسانية، لهذا لا يخلو عصر منهما، ولنلتمس هذا من سيرة الصحابة فيروي أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "**الأحياء يبكون الموتى يُعذبون**". وقد شرحت السيدة عائشة رضى الله عنها هذا الحديث للناس فقالت: لا يمكن هذا، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. روي أحد الصحابة عن الرسول ﷺ أن الموتى يسمعون. وذكر هذا أمام السيدة عائشة فقالت: لا يمكن أن يسمع الموتى، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ ويروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قوله: من أكل الطعام المطهو في النار ينقض الوضوء. وذكر هذا الحديث أمام عبدالله ابن مسعود فقال: لو كان هذا كذلك لبَطُل الوضوء باستعمال الماء الساخن، ويقول عبدالله بن عباس أن رسول الله ﷺ رأى الله في المعراج. وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها لم ير الله قط.

لا يمكننا الشك فيما نسب للصحابة (والعياذ بالله) وأنهم ينكرون أوامر الرسول ﷺ، ولهذا فإن الصحابة الذين يُنكرون الأحاديث المذكورة آنفًا لعلهم يرونها مخالفة للعقل، ولعل الرسول لم يقلها، وربما انخدع الناس في روايتها، وهكذا فقد جمع الحافظ جلال الدين السيوطي تلك الأحاديث في رسالة خاصة مع بيان السيدة عائشة للأخطاء التي وردت في رواية أبي هريرة.

على كل حال كان الخلاف في الرأي موجودا في عصر الصحابة أنفسهم وظل كذلك قائمًا في عصر التابعين.

وكانت طريقة الحياة الاجتماعية للعلماء أحد الأسباب الرئيسية للاختلاف، فقد كان من عادة الفقهاء والمحدثين أن يلتقوا فقط مع إخوانهم في الدين ولا يلتقوا مع أصحاب الأديان الأخرى، وكان سبب ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن لقاءهم بمن ليس على دينهم أمر غير محبب، والسبب الآخر أنهم لم تسنح لهم الفرصة لأي عمل آخر غير نقل ورواية الأحاديث والبحث فيها وفحصها وتحقيقها،

وكانت نتيجة ذلك أن أصوات الأديان المخالفة لم تصل إلى آذان المحدثين، ولا يعرفون شيئًا عن ما نشروه من اعتراضات على الإسلام، وكان خطابهم منصبًا فقط على جماعة المعتقدين بهم وكان ما يقولونه يقبله الناس بدون أي عذر، وكان جمهور الناس يسألون المحدثين كيف يستقر الله سبحانه وتعالى على العرش ولا جسم له، وكانوا يقولون لهم: " الكيف مجهول والسؤال بدعة". وكان المعتقدون يقبلون هذا الجواب في صمت، وكان المحدثون لا يرون هناك أهمية لإزالة هذا الغموض، وعلى العكس من ذلك كان المتكلمون وخاصة المعتزلة يلتقون بالناس من كل دين ومن كل فرقة ويتناظرون ويتباحثون معهم ولم يتشددوا معهم في الخطاب بل يظهرون الحقيقة الأصلية أمامهم ويحلون عقدة الإبهام والإجمال.

وبناءً على هذا كانت العقائد تتغير رويدًا رويدًا هكذا، ونذكر لهم هنا إحدى المسائل الخاصة على سبيل المثال.

الخطوة الأولى:

الله له جسم، ومستقر على العرش وله يد ووجه، ووضع الله تعالى يده على الكتف المبارك للرسول، وقد شعر الرسول ببرودة يديه سبحانه وتعالى.

الخطوة الثانية:

الله له جسم، وله يد وله وجه وله ساق، ولكن جميع هذه الجوارح ليست مثل التي عندنا.

الخطوة الثالثة:

الله لا جسم له، ولا يد له، ولا وجه له والكلمات التي وردت في القرآن في هذا الصدد لا يراد منها المعنى الحقيقي، بل المجاز والاستعارة فالله تعالى سميع بصير عليم وجميع هذه الأوصاف زائدة عن ماهيتها.

الخطوة الرابعة:

صفات الله لا تخرج عن الذات ولا عين الذات.

الخطوة الخامسة:

ذات الله محض واحدة لا تتحمل أي نوع من الكثرة، وذاته تعالى تؤدي عمل جميع الصفات، فذاته عليمة وهي بصيرة أيضًا وسميعة كذلك وقديرة.

الخطوة السادسة:

وجود الله مطلق أي أن وجوده عين الماهية.

وقد اختاروا نفس هذه المسألة في صورة وحدة الوجود ومزجوا بين الفلسفة والتصوف.

هذا النوع من التغيير التدريجي في العقائد كان سببًا في تطور الأفكار والفنون والعلوم، وهذا ما حدث في الإسلام، وقد أخذ هذا التغير يتبدل من مستوى إلى آخر في نهاية عهد الدولة الأموية، وكان بلاط الدولة العباسية يغص بالفلاسفة وعمت شهرتها الآفاق، وظل الفقهاء والمحدثون على ظاهريتهم لفترة متأخرة من الوقت، وبات من الصعب إقناع جمهور الناس بهذا الأمر وهو أن الله له يد، وفي نهاية الأمر نشأت جماعة (الأشعرية) من بين فرق الفقهاء والمحدثين رفضت أن يكون لله جسم ويد ووجه، ولكن لم يكن من الممكن التوقف عند هذا الحد وكانت هناك مشكلة تتعلق بالصفات، فلو هو عين ذات فإن الصفات لا تعد شيئًا منفصلاً وخارجه عن الذات، وقد اختير جانب "لا عين ولا غير" للرد على هذا الاعتراض، ولكن أنى للأقدام أن ترسخ على هذا الطريق الضيق، وفي النهاية استقر الاعتقاد على أن لله وجودًا بسيطًا وأن جميع الصفات هي مظهر من مظاهره.

ليس المقصود من هذا التقرير أن تمحى جميع المستويات والأصعدة السابقة تمامًا، ففي كل عصر وحتى الآن يوجد كل نوع من المعتقدين، بل الهدف من تأكيد ذلك هو أن الفرق الجديدة تكونت ونشأت على أنقاض الفرق القديمة نفسها.

السياسة وبداية اختلاف العقائد:

بالرغم من أننا جمعنا جميع أسباب اختلاف العقائد لكن البداية كانت السياسة أي حاجة الدولة، وكان قد راج سوق سفك الدماء في عهد الدولة الأموية وظهرت الاضطرابات والفتن في طبائع الناس، لكن لم ترد كلمة شكوى قط على ألسنة أحد، وكان المؤيدون للحكومة يقولون: اصمتوا فما هو كائن كان برضا الله ولا يجب أن نتدخل "آمنا بالقدر خيره وشره".

ففي عهد الحجاج بن يوسف الذي كان يعرف بالظلم والجور عاش معبد الجهني وهو صحابي شاهد الصحابة رأي العين وكان شجاعًا صادقًا،[1] وكان قد انخرط في حلقات دروس الإمام الحسن البصري، وذات يوم سأل الإمام الحسن البصري قائلاً: إلى أي مدى صحة ما قدم من عذر القضاء والقدر من جانب بني أمية؟ فقال الحسن البصري: "هذا من أكاذيب أعداء الله"، وكان منذ بداية الأمر قد استشاط غضبًا من مظالم بني أمية والآن ثار عليها علانية وقُتل.[2]

وبعد معبد طور غيلان الدمشقي هذه الفكرة وكان غلامًا لسيدنا عثمان بن عفان وتلقى تعليمه على محمد بن الحنفية، وعندما أصبح عمر بن عبدالعزيز خليفة

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبي..

(٢) المقريزي: تاريخ مصر. ٣٥٦/٢